«شجاعة العربية» في التراث البلاغي مراجعة في آثار الدارسين

د. رامي جميل أحمد سالم *

E.mail: ramijas@yahoo.Com
E.mail: ramijas@psut.edu.jo

* جامعة الأميرة سمية للتكنولوجيا - الأردن.

«شجاعة العربية» في التراث البلاغي مراجعة في آثار الدارسين

د. رامي جميل أحمد سالم

الملخص:

يعدّ مصطلح «شجاعة العربية» من المصطلحات العربية التليدة الذي ينضوي تحته ألوانمن البيان والبديع، والتي تشكل في جوهرها جزءاً أصيلاً من التراث البلاغي، وتعكس الذائقة الإبداعية عندهم.

ويعالج هذا البحث مصطلح «شجاعة العربية «من حيث: تعريف المصطلح، وسبب التسمية، ثم الوقوف على إرهاصاته الأولى عند النحويين، وانتقاله إلى الحقل البلاغي ثم الكشف عن أقسامه المتعددة وتحليلها قسماً قسماً. وقد وقف البحث عند بلاغيَيْن فذيّن هما ابن الأثير الجزري وابن الأثير الحلبي

ومن ثم سعت الدراسة للكشف عن تجليات المصطلح في النقد الحديث؛ لبيان صورة المثاقفة الحاصلة بين الشعرية العربية القديمة والشعرية العربية الحديثة.

مصطلحات أساسية: شجاعة العربية، آثاد الدراسين، التراث البلاغي.

The Term "The Bravery of Arabic" in the Arabic Rhetorical Heritage:
A review of scholars' previous studies

Dr. Ibrahim M. Abanamee

Abstract:

The term "The Bravery of Arabic" is considered one of the inherited time-honored Arabic technical colloquial terms, covering a variety of eloquence and magnificence of speech. It forms, in its essence, an integral part of the rhetorical heritage, and reflects the creative taste of the rhetoricians.

This research addresses the term "The Bravery of Arabic" in terms of its definition, and the reason for the name. The study then deals with the origin of the term, how it has moved into the rhetoric field, exploring its various definitions individually. Finally, it deals two unparalleled men of eloquence: Ibn Al-Atheer Al-Jazri and Ibn Al-Atheer Al-Halabi.

The study has sought to discover the manifestations of the term in modern criticism to demonstrate the image of acculturation occurring between ancient Arabic poetry and modern Arabic poetry.

Keywords:

المقدمة:

يعدّ مصطلح «شجاعة العربية» مصطلحاً عربياً تليداً درج البلاغيون على دراسته ضمن مبحثي «البيان» و«البديع»[1]، والمصطلح لافت للنظر في تركيبه فهو مركب من إضافة «الشجاعة» إلى «العربية»، والمألوف أنّ الشجاعة فعل حسيّ تُسند للإنسان[2]، وتعني بهذا الإسناد «الإقدام، والرجل إذا كان شجاعاً فإنه يرد الموارد الصعبة، ويقتحم الوُرَط العظيمة، حيث لا يردها غيره، ولا يقتحمها سواه»[3]، كما يمكن للشجاعة أن تُسند للحيوان «إذ حقيقة الشجاعة قوة في نفس الحيوان يظهر آثارها على بدنه وجوارحه من إقدام وشدة وطعن»[4]، ومن ثم ظهر هذا المصطلح في حقل الدراسات النحوية ثم البلاغيّة، وصار يطلق على الموضوعات التي تحتاج من صاحبها معرفة حصيفة بالبلاغة وذلك لقوتها، وكثرة تصرفاتها المختلفة. وقد أوضح ابن الأثير حقيقة الشجاعة المنسوبة إلى العربية بقوله أن «للعربية أسراراً لا يطلّع على خباياها، ولا يقدر قدر مزاياها إلا من تغذى بلبان البلاغة طفلاً ونشأ عليها كبيراً وصغيراً، وسلك مناهج هذا العلم، وفاز منه بأوفر الحظ والقسم»[5].

والجدير بالذكر أنّ مصطلح شجاعة العربية ليس مصطلحاً مستقلاً بل يندرج تحته أقسام من علم البيان، وهي: الالتفات، وعكس الظاهر، والحمل على المعنى، والتقديم والتأخير، والاعتراض. ومن يطالع المدونات البلاغية والنقدية والنحوية التي ظهرت في منتصف القرن الثالث الهجري وما بعده، يجدها تحدثت بتفصّيل أو إجمال عن هذه الأقسام، ممّا يفرز التساؤل الآتي: ما الدافع لأن تُجمع هذه الأقسام تحت باب واحد منذ نهايات القرن الرابع الهجري، وتحديدًا في القرن السابع الهجري؟ولماذا هذه الأقسام بالذات مع العلم أنّ المدونات البلاغية تفيض بمصطلحات البيان والبديع ؟وتبدو الإجابة ماثلة في الاطلاع على هذه الأقسام وفهمها ليتبين للقارئ أنّ من يطّلع على هذه الأقسام يتبين حقيقة صعوبة التأليف فيها ودقته، فلا يقدر عليه سوى بليغ متمرس في البلاغة قادر على الاتيان بكلامه، كله، فصيحاً مستوفياً لأنواع البلاغة، فكان القاصد إلى التأليف في هذه الأقسام صاحب جرأة ومقدرة فذّة على التصرف والتفنن في الكلام؛ لأن اللطائف فيها كثيرة والمحاسن متوفرة ولأنّ «معظم البلاغة مندرجة في أثنائه أي شجاعة العربية، ومنطوية تحت ضروبه»[6]. ويمكننا الاطمئنان للفكرة السابقة إذا ما وقفنا على دلالات الفعل «شَجُع» في لسان العرب، لنجد ابن منظور يربطها بالإقدام والجرأة والشدة في البأس[7].

إن الكلام على مصطلح «شجاعة العربية» يتضمن في طياته الإقدام على أمر ما، وقد كان للعرب – كما يقول الجاحظ –: «إقدام على الكلام، ثقة بفهم أصحابهم عنمهم»[8]،ذلك أنّ بعض أنواع البيان في البلاغة العربية مسلكها صعب، وتحتاج ممّن يمارسها أن يكتسب مرجعية ثقافية تؤهله لفك أسرارها، كما تحتاج إلى معرفة لازبة بصيغ العدول في السياقات تؤهله للوقوف على «ما دار بين العرب في لغاتهم الفصيحة عند النطق بها من تقديم معنى أو تأخير أو تثنية جمع أو جمع أو انتقال في استرسال الكلام من غيبة إلى حضور، أو من حضور إلى غيبة»[9]. ثم تؤهله لتطبيقها في كلامه فصيحاً مستوفياً لأنواع البلاغة، ومن هنا أجمع البلاغيون على إدراج أصناف من البلاغة تحت اسم «شجاعة العربية».

وتتأتّى جمالية الحديث عن شجاعة العربية من أنّ الأقسام التي درست ضمن هذا المصطلح جاءت لتؤكد إعجاز القرآن الظاهر في نظمه؛ لذا نجد أغلب الشواهد المُساقة في هذه الأقسام هي شواهد قرآنية،وقد درسها البلاغيون تحت باب شجاعة العربية ليتمكنوا من خلالها «الاطلاع على إعجاز القرآن العزيز وإظهار فائقه وخفايا أسراره، وإيضاح طرق بلاغته»[10]. فمستوى الخطاب القرآني يعد خارجاً عن مألوف اللغة ونظامها، وذلك الخروج هو ما يشكّل بلاغته ومن ثم إعجازه، ولهذا يؤكد نصر حامد أبو زيد أنّ البحث في قضية الإعجاز ليس

في حقيقته إلا بحثاً عن السمات الخاصة للنص التي تميزه عن النصوص الأخرى في الثقافة وتجعله يعلو عليها ويتفوق وذلك بخروجه عن نظام جميع كلام العرب ومباينته للمألوف من ترتيب خطابهم[11]. وكان البلاغيون أحياناً يسوقون الشواهد الشعرية؛ لأن مثل هذه الشواهد قد كشفت عن قوة الشاعرية ودقتها في شعرنا العربي القديم وقدرة شعرائنا على التفنن في أساليب الإبداع في شعرهم، فهم «أمراء الكلام يُصرفونه أنى شاؤوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ومن تصريف اللفظ وتعقيده واستخراج ما كلّت الألسن عن وصفه ونعته والأفهام عن فهمه وإيضاحه»[12]. وبذلك يصبح الوقوف على هذه الشواهد الشعرية والقرآنية ومحاولة فهمها وتذوقها ضمن المعايير البلاغية المندرجة تحت باب شجاعة العربية تأسيساً لما نسميه بـ«اللحظة الجمالية» أو الشعور بقيمة العمل الفني[13].

أمّا ما يتعلق بتعليل المصطلح، فيقدم ابن جني تعليله إذ يربط سبب التسمية بشجاعة الفارس وإقدامه في الحرب إشارة إلى مدلول التسمية في اللغة، وكأن البليغ في وروده للتأليف تحت هذا الباب يملك من الجرأة والإقدام ما يملكه الفارس في الحرب، فيقول: «مثله في ذلك عندي مثل مجري الجموح بلا لجام، ووارد الحرب الضروس حاسراً من غير احتشام. فهو وإن كان ملوماً في عنفه وتهالكه، فإنه مشهود له بشجاعته وفيض مُنّته» [14] وهذا ابن الأثير الحلبي يردّ السبب إلى «أنه لما كان كلاماً فيه قوة يتصرف بها في المخاطبات من غيبة إلى حضور، ومن حضور إلى غيبة، ومن تثنية إلى جمع، ومن جمع إلى تثنية وتقديم وتأخير كما تقدم ذكره، ومع ذلك كله لا يخرجه من حدّ الفصاحة والبلاغة، لا ينسب إلى خللٍ ولا تقصير في استيفاء المعاني صار في نفسه شجاعاً بالنسبة إلى العربية، تشبيهاً بالرجل الذي تكون فيه شجاعة تحمله في الحرب على التقديم والتأخير... وقلّ ما يكون آخذاً في موقف الحرب إلى جهة اليمين حتى يأخذ جهة الشمال وبالعكس... فحسنت تسمية الكلام المحتوى على ما قدّمناه من التقسيم الذي شرحناه بهذه التسمية، لأن الشجاعة في مثل هذا الكلام تحمله على الجولان في جوانب المعاني كيف شاء»[15].

ومن يطالع أقوال البلاغيين في بعض الأقسام التي درسوها ضمن شجاعة العربية يقف على مجموعة من الجمل البلاغية التي تشير بل تدلل على سبب التسمية؛فعندما يتحدث ابن الأثير الجزري عن الالتفات يقول في آخر حديثه :« فانظر إلى هذه اللغة الشريفة، وتناسب هذه المعاني اللطيفة التي الأقدام (لا) تكاد تطؤها، والأفهام مع قربها صافحة عنها»[16]. وعندما يتحدث عن عكس الظاهر يبين أن هذا القسم في علم البيان «له أسراره الغريبة، وخفاياه المستطرفة العجيبة»[17]. وعندما يتحدث ابن الأثير الحلبي عن الحمل على المعنى يرى بأن هذا القسم « دقيق المسلك، بعيد المذهب، يحتاج إلى فضل معاودة وزيادة تأمل»[18]. وفي نظرة فاحصة إلى الجمل السابقة نتبين أنّ للبلاغة العربية معانيَ لطيفة لا تطؤها الأقدام، وأسرارا وخفايا عجيبة الأفهام صافحة عنها، ومسالك دقيقة تحتاج إلى معاودة وتأمل، والتأليف فيها يحتاج إلى شجاعة ومهارة وإبداع استحقت معها أن تدخل ضمن سياق «شجاعة العربية»

شجاعة العربية في التراث النحوي والبلاغي:

لقد طوّر أبو الفتح عثمان بن جني (392هـ) فكرة الإقدام والجرأة عند العرب في الكلام ،وأحكم الربط بينها وبين الانحراف عن النمط المألوف وذلك في حديثه عمّا سمّاه (شجاعة العربية) التي انفرد بتسميتها بشهادة صاحب «الجامع الكبير» وصاحب «جوهر الكنز». حيث يقول ابن الأثير: «إلا أني لم أجد شيئاً منه [يقصد شجاعة العربية] عند أرباب هذه الصناعة [يقصد علم البيان والبلاغة]، ولا وجدته في كتاب مصنف في هذا الفن، سوى أني رأيت أبا الفتح عثمان بن جني قد ذكر في كتابه الموسوم بالخصائص، شيئاً من التقديم والتأخير،

والحمل على المعنى لا غير»[19]. وكلام ابن الأثير يشير إشارة واضحة إلى تفرّد ابن جني بإثارة هذا المصطلح والحديث عنه في زمنه.

ومن يراجع كتاب «الخصائص» لابن جني يجده يفرد لشجاعة العربية باباً مستقلاً، ويدرج تحته خمس ظواهر مبيناً «أن معظم ذلك إنما هو الحذف والزيادة والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى والتحريف»[20]، ثم أفاض الحديث في مناقشة كل قضية على حدة مدعّماً نقاشه بشواهد من القرآن الكريم ومن عيون الشعر العربي. موجهاً نقاشه فيها توجيهاً نحوياً ولغوياً، إذ أغلب القضايا التي ناقشها في باب شجاعة العربية غلب عليها التحليل النحوي، فإذا ما شرع في تحليل شاهد شعري أو قرآني يتعلق بمسألة الحذف والزيادة مثلاً كان همّه منصباً على الأدائين اللغوي والنحوي، ويعلل محمد عبد المطلب ذلك بأن النحويين واللغويين يقيمون مباحثهم على رعاية الأداء المثالي[21] أي الكلام في مستواه العادي .إلا أنه لا يُنكر لابن جني تنبهه على ظاهرة الانحراف عن الأداء المثالي، وهو يعالج الكثير من الشواهد القرآنية سواء في كتابه «الخصائص» أو في كتابه «المحتسب» ،ويمكن الإشارة في هذا المقام إلى موضعين يؤكدأن صحة ما نذهب إليه؛ ففي كتاب المحتسب يتحدث ابن جني عن التنقل بين وزنين للفعل من صيغة واحدة،ذلك بالنظر إلى قراءة الجماعة لقوله تعالى: «فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا»، وقراءة ابن عباس: «فمهّل الكافرين مهّلهم رويدا»، إذ يقول: «... وذلك أنّ قولهم: «فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا» فيه أنه آثر التوكيد ،وكره التكرير ،فلما تجشّم إعادة اللفظ مع تكارهه إياه انحرف عن الأول بعض الانحراف بتغييره المثال ،فانتقل عن فعّل إلى أفعل، فقال: «أمهلهم»... وأما في هذه القراءة فإنه كرر اللفظ والمثال جميعاً، فقال: «مهّل الكافرين مهّلهم» فجعل ما تكلفه من تكرير اللفظ والمثال جميعاً عنواناً لقوة معنى توكيده ،إذ لو لم يكن كذلك لانحرف في الحال بعض الانحراف»[22].

فالنص السابق يوضح تنبّه ابن جني على فكرة المثال وظاهرة الانحراف عنه، سعياً لتحقيق قيمة إضافية هي التنويع، وهذه القاعدة في الانحراف عن الأصل لتحقيق قيمة فنيّة تنطبق على ما أسماه ابن جني (قوة اللفظ لقوة المعنى) الذي عقد له في كتابه «الخصائص» باباً يحمل هذا العنوان، ويقصد به أن أي تحول في بنية اللفظ –زيادة على بنيته الأصلية– يتبعه زيادة في معناه،وهو ما يكسب دلالته قدراً من المبالغة يتفاوت من حالة إلى أخرى تبعاً لمدى الانحراف عن الصورة الأصلية. يقول ابن جني: «ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله ،وذلك فُعال في معنى فعيل؛ نحو طوال؛ فهو أبلغ (من معنى) طويل»[23]، لذا يعود الفضل إلى ابن جني في شيوع مثل هذه الاصطلاحات وانتشارها ودخولها إلى محيط الدرس البلاغي .

وبناء على ما سبق فإنّ البلاغيين العرب، الذين تناولوا مصطلح شجاعة العربية بالدرس والتحليل، أخذوا المصطلح عن ابن جني، كما سنرى لاحقاً،واستفادوا كثيراً من شروحه وملحوظاته حول كثير من القضايا التي عرض لها في باب «شجاعة العربية»، وتعدت مرحلة الإفادة من المصطلح إلى أخذ مباحث بأعيانها دون أي تغيير[24]، مثل الحمل على المعنى والتقديم والتأخير، والفارق بينهما نظرة كل منهما إلى القضية وطريقة عرضها وتحليلها. وقد أشار ابن الأثير الحلبي وابن الأثير الجزري إلى ذلك في مفتح كتابيهما.

وإنْ تعجب فعجب أن المصطلح لم يحظَ باهتمام البلاغيين خاصة في القرنين الخامس والسادس، فلم يولج مصطلح شجاعة العربية عالم البيان بهذه التسمية إلا على يد بلاغيّيَن أحدهما في منتصف القرن السابع وهو ابن الأَثير الجزري، والثاني في منتصف القرن الثامن وهو ابن الأثير الحلبي ؛أما البلاغي الأول وهو ابن الأثير الجزري (637هـ) فيفرد في كتابه «الجامع الكبير» –الذي كان قد ألّفه قبل كتابه «المثل السائر»–[25] باباً لـ«شجاعة العربية»[26]. مشيراً إلى أنّ هذا الباب «نوع من علم البيان تتكاثر لطائفه، وتتوفر محاسنه»[27]، ويرى أن أهميته نابعة

من أن «معظم البلاغة مندرجة في أثنائه، ومنطوية تحت ضروبه»[28]، وتبدو هذه الأهمية لامعة من طرفين: الأول أنه وجد أكثر التطبيقات والشواهد عليه موجودة في أثناء القرآن الكريم[29]. والثاني أنه وصف الشواهد عليه -سواءً أكانت شعرية أم قرآنية- باللطائف والمحاسن، ثم بيّن كونها «أشياء عجيبة، ونكتاً ظريفة»[30]. وهو بعد ذلك يجعل شجاعة العربية في خمسة أقسام هي: الالتفات، في الإخبار عن الفعل الماضي بالمضارع وعن الفعل المضارع بالماضي، عكس الظاهر، الحمل على المعنى، التقديم والتأخير، الاعتراض. ثم يمثّل على كل قسم من أقسام شجاعة العربية بالأمثلة والشواهد ذات الفائدة القيّمة محاولاً أن يعلل سبب ارتباط كل قسم بشجاعة العربية.

وجدير بالملاحظة أنّ جار الله الزمخشري قد اجتهد في تفسير بعض الآيات القرآنية وبخاصة المشتملة على الالتفات، ولم يتوقف عند العامل النفسي وهو يفسر الظاهرة القرآنية، بل التفت كذلك إلى العنصر المعنوي المتغير مع كل حالة من حالات الالتفات[31]. والزمخشري (537هـ) سابق، من الناحية التاريخية، لابن الأثير الجزري، والغريب أن اجتهادات الزمخشري في التفسير لم تلقَ قبولاً لدى الجزري،بل احتشد هذا الأخير لتفنيد آراء الزمخشري ونقده في تفسيراته[32]، ولكن وإن كان الجزري صائباً فيما وجهه من نقد إلى الزمخشري، إلا أنه استفاد من تفسيراته واجتزأ من كلامه خاصة في باب الالتفات،ومع ذلك فإن ما عرضه في فحصه لمقولة الالتفات وفي استنباطاته النظرية وتحليلاته العلمية كان بحق تتويجاً لمراحل التطور التي مرّ بها المبحث البياني من التعميم المطلق إلى الاجتهاد الأولي ثم أخيراً إلى التخصيص الموضوعي المدقق.

والطريف أن مصطلح «شجاعة العربية» يلقى حضوراً عند واحد من علماء التفسير وهو علم خارج إطار البلاغة والبيان، فيتحدث عنه سليمان بن عبد القوي الطوفي (716هـ) في كتابه «الإكسير في علم التفسير» في القسم الرابع من أقسام البيان. ولكن ما أن نراجع ما كتبه الطوفي حتى يأفل نجم الطرافة، وعلة ذلك أنه أعاد كلام ابن الأثير بحذافيره؛ فأقسام شجاعة العربية عنده هي عينها عند ابن الأثير والأدهى من ذلك أنه يعتمد الترتيب نفسه، ويكرر الشواهد نفسها مع إضافة بسيطة. لنصل في نهاية المطاف إلى ابن الأثير الحلبي (737هـ) في كتابه «جوهر الكنز»، حيث يفرد لـ«شجاعة العربية» باباً مستقلاً، ويرى أنَّ هذا الباب هو عبارة عن أنواع شتى من البديع[33]، هي: الالتفات (سواء في الأفعال أو الضمائر)، وعكس الظاهر، وتأنيث المذكر وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد في الجماعة، ومعنى الجماعة في الواحد، وتقدّم المفعول على الفعل، وتقديم الظرف على المظروف وتقديم الخبر على المبتدأ، ونوع الاستفهام، وتقديم الظلمات على النور، والتقديم بالذات، وتقديم السببية، وتقديم الرتبة، والتقديم بالشرف، وتقديم الأكثر على الأقل.

مضامين شجاعة العربية ودلالاتها:

يعدّ مصطلح شجاعة العربية واحداً من المصطلحات العربية بحسب نظرة البلاغيين العرب، يكون اللغة العربية اختصت به دون غيرها من اللغات، وقد أدرك البلاغيون العرب أن المستوى المألوف للغة يخضع للنظرة النحوية، لهذا ولوّا وجوههم شطر المستوى الفني، ذلك المستوى الذي لا يتحقق إلا بتجاوز ما هو مألوف أي بتجاوز المستوى النحوي إلى المستوى البلاغي والبحث عن الأبعاد الدلالية والنفسية الكامنة وراء هذا المصطلح، لا سيما أن أغلب الشواهد آتية من القرآن الكريم والشعر العربي وكلام العرب، وقد رصد البلاغيون «هذا التجاوز بقدر كبير من الدقة والفهم للضرورة التي يقتضيها الموقف من مراعاة حال المخاطب»[34].

وتبدو قضية المعنى وخصوصية الدلالة هي الطابع العام لأقسام شجاعة العربية، فالقضية في الأساس هي قضية معنى، لذلك جعل البلاغيون وعلى رأسهم ابن الأثير الجزري شجاعة العربية من الصناعة المعنوية، فهناك معنى يقصد إليه منشئ الخطاب

ويحققه من خلال صيغة معينة مثل الالتفات أو عكس الظاهر أو التقديم والتأخير... دون أن يرتبط معنى من المعاني بصورة حاسمة بصيغة معينة من الصيغ السابقة، فقد ترد صيغة مّا في سياق لتشير إلى المعنى المقصود، ثم ترد الصيغة نفسها في سياق آخر لتشير إلى معنى آخر مقصود، فإذا انتفى أن يجري هذا الاستخدام على وتيرة واحدة انتفت إمكانية ضبطه وحدّه بحد. وبذا استطاع البلاغي أن يحقق ذلك المعنى في مباحث شجاعة العربية من خلال اعتماده على صورة الكلام المنحرف والمنعزل عن صيغته «المجاز»، وذلك مقابل صورة الكلام المثالي في مستواه المألوف «الحقيقة»، فابن الأثير يشير إلى مفهوم العدول وهو يحلل النصوص القرآنية المتعلقة بالالتفات[35]. لذا كل من يدرس مباحث شجاعة العربية من الباحثين المعاصرين يدرسها ضمن باب شعرية العدول أو باب الأسلوب[36]، فالعدول يمثل الطاقات الإيحائية في الأسلوب، ويكسب الجملة ميزة فنية يعمد إليها المبدع لخلق صورة فنية متميزة لا نجدها في الكلام بمستواه العادي[37]. ويبدو أن البلاغيين العرب كانوا يدركون أهمية مخالفة هذا النمط المألوف في أشعار العرب بما يمثله من إقدام من المتكلم؛ لذا جعلوا شجاعة العربية خلاصة علم البيان[38]. كما وجدوا أن القرآن يحوي آيات كثيرة صالحة للتطبيق على أقسام شجاعة العربية لذا ربطوا قدرة القرآن الإعجازية بشجاعة الصياغة النظمية التي تفرّد بها.

يعدّ الالتفات أول أقسام شجاعة العربية الذي بسط ابن الأثير الحديث فيه، وتوسع في مناقشته، ومثّل على أقسامه، ووضعه في ثلاثة أقسام، الأول: الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، الثاني: الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، والثالث: الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع. ثم تحدث عن الإخبار عن الفعل الماضي بالمضارع وعن المضارع بالماضي[39].

وقد حصر شواهده القرآنية في سورة الفاتحة موضحاً أنّ فيها رجوعا من الغيبة إلى الخطاب، وأنّ هذا الرجوع يُستعمل لتعظيم شأن المخاطب و(هو) الله. فشرع في توضيح ذلك التعظيم بأنه ذكر الحقيق بالحمد «الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ» وأجرى عليه الصفات العظام من الربوبيّة العامة والملك الخاص الرَّحْمن «الرَّحيم مَلك يَوْم الدِّين»، فعلم العالم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالخضوع له، والاستعانة في المهمات به، فخوطب ذلك المعلوم الموصوف بتلك الصفات فيقل: إياك نعبد يا من هذه صفاته أي نخص بالعبادة والاستعانة، ليكون أدّل على العبادة لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به[40].

ونجد الالتفات من الغيبة إلى الخطاب. فإن قوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» بعد قوله: «الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ» ليس العدول فيه من الغيبة إلى الخطاب اتساعاً إنما عدل إليه لفائدة حسنة، وذلك أنّ الحمد لله دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده فاستعمال لفظ «الحمد» لتوسّطه مع الغيبة في الخبر فقال: «الحمد لله» ولم يقل «الحمد لك»، ولما صار إلى العبادة قال «إياك نعبد» فخاطب العباد إصراحاً بها وتقرباً منه –عزّ اسمه–، ثم قال: «صِرَاطَ الَّذينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ» فصرّح بالخطاب لمّا ذكر النعمة، ثم قال: «غَير المَغضُوب عَلَيهِمْ»، ولم يقل «غير الذين غضب عليهم»؛ لأنّ الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه. فلما صار إلى ذكر الغضب، قال: «غَير المَغضُوب عَلَيهِم» ، فجاء باللفظ منحرفاً به عن ذكر الغضب، فأسند النعمة إليه لفظاً، وزوى عنه ذكر الغضب تحسّناً ولطفاً»[41].

إن كلام ابن الأثير السابق يكشف عن ما تحمله شجاعة العربية من دلالات ضمن إطار الالتفات، ونستطيع أن نشير هنا إلى نقطتين: الأولى بيّن البعد النفسي للالتفات فيما يتعلق بالمخاطب من خلال حصر الالتفات بفائدة حسنة، موضحاً أن تلك الفائدة لا تنحصر في أمر محدد بعينه بل هي متروكة للسياق، فقد تكون الفائدة تطرية لنشاط السامع وإيقاظه، وقد يكون تعظيماً لشأن المخاطب كما يتضح من النص القرآني السابق، ذلك «أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري

على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعباً كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤثر بها على حسب الموضوع الذي ترد فيه»[42]. الثاني: وضّح ابن الأثير البعد الدلالي لبلاغة الخطاب القائم على الالتفات، موضحاً أنّ أي التفات له دلالة بلاغية خاصة تتعلق بالمخاطب، وقد أشار محمد عبد المطلب إلى أن إدراك ابن الأثير للعدول عن النسق اللغوي في التطابق جعله يؤثر الحديث عن شجاعة العربية ضمن مباحث أهمها الالتفات؛ لأن الشجاعة تقتضي الإقدام، ولا شك في أن مخالفة النمط المألوف يمثل إقداماً من المتكلم، من هنا جعل شجاعة العربية خلاصة علم البيان[43]. ويبدو أن هذا ما جعله يعلّق في آخر شرحه لسورة الفاتحة بقوله: «فانظر إلى هذه اللغة الشريفة وتناسب هذه المعاني اللطيفة التي الأقدام (لا) تكاد تطؤها، والأفهام مع قربها صافحة عنها»[44].

ومن أقسام شجاعة العربية «عكس الظاهر» وهو مصطلح عربي نقدي تليد يقع في صميم التأويل[45]، أول من انفرد بذكره ضياء الدين ابن الأثير، وقد عرّفه بأنه نفي الشيء بإثباته، وذلك أنهم يذكرون كلاماً يدل ظاهره على معنى، وهم يريدون به معنى آخر عكسه وخلافه، والأصل في ذلك أنك تذكر كلاماً يعطي معناه أنه نفي لصفة شيء قد كان وهي نفي للموصوف أنه كان أصلاً[46].

ويزعم ابن الأثير أن هذا الفن لم يذكره أحد قبله ولا أشار إليه، وأنه عثر على أول كلام منه في قول علي –كرم الله وجهه– وهو يصف مجلس النبي: «لا تُثنّى فلتاته» أي لا تذاع سقطاته، فظاهر النص أن هناك سقطات بيد أنها لا تذاع، ولكن الأمر ليس كذلك بل أراد أنه لم يكن ثمة فلتات فتثنى[47]. وهذا الأمر مركوز في الطباع ومقرر في النفوس. ويبدو أنّ ما دفع ابن الأثير ليجعله من أقسام شجاعة العربية أن «هذا القسم من مُشكّلات علم البيان، وأسراره الغريبة، وخفاياه المستطرفة العجيبة»[48]. إذ هذا القسم من النكت البلاغية الدقيقة التي تحتاج إلى تأمل وإعادة مراجعة، فمن يقرؤها يظن أنه فهم فحواها واستنبط رمزها، فإذا أعاد فيها النظر وجد نفسه بعيداً عن مرماها غير متحصّل لمبتغاها.

ومن الأمثلة الشعرية التي تُضرب مثلاً على عكس الظاهر قول امرئ القيس:[49]

على لاحبٍ لا يُهتدى لمناره

إذا سافَهُ العَودُ الدّيافيّ جرجرا

فقوله «لا يُهتدى لمناره» يعني ،ظاهراً، أن له مناراً غير أنه لا يهتدي به،وليس المراد ذلك، بل هو أنه لا منار له أصلاً حتى يهتدي به.

ومن أقسام شجاعة العربية «الحمل على المعنى» وذلك أن العرب حملت بعض كلامها على المعنى، فلم تكد تراجع اللفظ لحصول المقصود من دونه كقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ» (البقرة،258)، إلى أن قال: «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ» فحمله على المعنى كأنه قال مَثَلُ قومك في كفرهم كمثل الذي حاجّ إبراهيم في كفره أو كالذي مرّ على قرية. ولو كان تابع اللفظ لقال: ألم تر إلى الذي مرّ على قرية كقوله ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم[50].

ويتضمن قسم الحمل على المعنى أقساماً منها: تأنيث المذكر وتذكير المؤنث، وتصوّر معنى الواحد للجماعة والجماعة للواحد، وحمل الثاني على لفظ الأول، أصلاً كان ذلك اللفظ أم فرعاً[51].

وكل هذه الأقسام تقوم على انتهاك الصياغة المباشرة والعدول بها من جهة اللفظ إلى جهة المعنى، ليصبح الكلام محمولاً على دلالة المعنى ومهملاً لدلالة اللفظ، فما جاء في تذكير المؤنث قوله تعالى: «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ» (الأعراف، 56)، فعدل إلى صيغة التذكير «قريب» بعد قوله بصيغة المؤنث «رحمة» لأنه أراد بالرحمة هنا المطر[52]، فحمل كلمة قريب على المطر لأن كليهما مذكر. فعدول الصيغة جاء محمولاً على المعنى دون اللفظ. وأما تصور حمل الجماعة على الواحد كقوله تعالى: «بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» (البقرة،

112)، فحمل الكلام في أوله على لفظ الواحد «وهو»، و«له» وآخره حمله على لفظ الجمع «عليهم»، و«هم»[53]، وهذا الأمر يحتاج إلى ثقافة من القارئ وإلى زيادة تأمل، فالتأليف في باب الحمل على المعنى «دقيق المسلك، بعيد المذهب، يحتاج إلى فضل معاودة وزيادة تأمل، وقد ورد في القرآن الكريم، وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً»[54]. ويبدو أن هذا السبب كان وراء عدّه من أقسام شجاعة العربية، إذ الشجاعة أن تأتي بالكلام فصيحاً بليغاً غير مقصّرٍ في معناه ولا داخلٍ به الخلل والنقص.

ومن أقسام شجاعة العربية «التقديم والتأخير»، وقد نظر البلاغيون إليه من زاوية فائدته في السياقات الكلامية، وإلا فهذا الباب متداول في الدراسات النحوية وقد تنبه ابن الأثير على ذلك، ولا بدّ أنه اطلع عليه عند ابن جني، فقال في مفتتح حديثه عن هذا الباب» وذلك ممّا يتعلق بعلم النحو، فإن لنا تقديماً وتأخيراً في الكلام، ولا يتعلق بالنحو، وليس هذا بابه»[55] فابن الأثير مدرك للعمل الذي يقدّمه وللوجهة التي يدير بها دفة حديثه في البلاغة، فهو يريد أن يتحدث من وجهة نظر البلاغي، فالبلاغيون «بحثوا الأمر [في التقديم والتأخير] بحثاً فكرياً منطقياً دقيقاً، ناظرين إلى حال المخاطب، وما هو الأعرف لديه من ركني الإسناد اللذين هما من المعارف»[56]. لذا قسّم الكلام على التقديم والتأخير فيما يتعلق بالفائدة إلى ضربين: الأول أن يكون التقديم هو الأولى والأبلغ لموضع الاختصاص، ويعطي أمثلة عليه مثل تقديم المفعول على الفعل، وتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل[57]. والضرب الثاني أن يكون التأخير هو الأولى والأبلغ إمّا لفائدة تقتضي ذلك وإمّا خوفاً من فساد المعنى واختلاله، ويضرب عليه أمثلة كتقديم الصفة على الموصوف، وتقديم الصلة على الموصول وتقديم العطف على المعطوف وغيرها[58].

ثمّ يضرب على التقديم والتأخير مثالاً هو باب الاستفهام ويراه جديراً بالتناول من حيث نظرة البلاغيين؛ لأن هذا الباب «عجيب المأخذ، كثير الفائدة، وآخر اللطائف... فإن حاجة المؤلف الكلام إليه ماسة»[59]، لذا يخاطب القارئ بأن هذا الباب من كثرة لطائفه يروق له ويذهب به في الامتحان كل مذهب.

ويعرض ابن الأثير الحلبي في كتابه «جوهر الكنز» أنواعاً تتعلق بالتقديم يجعلها ضمن باب شجاعة العربية، وهي أنواع لا نجدها عند البلاغيين قبله، أما من جاؤوا بعده فأخذوها عنه مثل يحيى ابن حمزة العلوي، وهذه الأنواع هي: تقديم الظلمات على النور[60] كقوله تعالى: «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» (الأنعام، 1). والتقديم بالذات[61] كقوله تعالى: «مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ» (المجادلة، 7). وتقديم السببية كتقديم العزيز على الحكيم لأن سبب الحكم العزة[62]. وتقديم الرّتبة[63]، كقوله تعالى: «وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ» (الحج،27) ،فجعل رتبة الإتيان مشياً أعلى من رتبة الإتيان على الضامر. وتقديم الشرف[64] كقوله تعالى: « فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً»(النساء، 69). وتقديم المشروف على الشريف[65] كقوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ» (الذاريات، 56) فقدّم الجن على الإنس لاشتمال الجن على الملائكة. وتقديم الأكثر على الأقل[66] كقوله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ» (فاطر، 32) ،فقدم الظالم لأنه كثير الوجود ثم تلاه المقتصد لأنه أقل ثم تلاه السابق لأنه أقل.

إن للعربية أسراراً في البلاغة دقيقة ومسالك بديعة لا يحصل شرف الكلام إلا بها، وباب التقديم والتأخير واحد منها فهو من دقائق البيان التي تنشط الأذهان، وتفتح للمتلقي باباً واسعاً هو التأويل والتفسير حتى يسلك مناهج هذا العلم ويفوز منه بالحظ الوفير، ويستوقفنا نصّ عبدالقاهر الذي يشير إلى فائدة ذلك الباب بقوله: «هذا باب

كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدّم فيه شيء وحول اللفظ من مكان إلى مكان»[67].

القسم السادس من أقسام شجاعة العربية هو «الاعتراض» واللافت للنظر أن ابن الأثير ينفرد من بين البلاغيين العرب في الحديث عن هذا القسم، إذ لم يلتفت إليه صاحب جوهر الكنز، ولم يدرجه ابن جني ضمن باب شجاعة العربية. وينبع اهتمام ابن الأثير بهذا القسم من عدّه شعبة من علم البيان تتكاثر محاسنها[68]. ويعرب عن غرضه من هذا الباب وهو بيان الفوائد البلاغية من الكلام المعترض أي الكلام الواقع بين جزأي الجملة المرتبط أحدهما بالآخر، وليس حصر قواعده النحوية، فالغرض منه حتى «يفرق المؤلف به بين الجيد منه والرديء، لا ما يعلم به الجائز، وغير الجائز، فاعرف ذلك»[69]، ويقصد بالجائز وغير الجائز ما يؤخذ من كتب النحو فليس هذا وكده وغايته.

ويقسم الاعتراض بحسب حصول المنفعة والغاية البلاغية قسمين: أحدهما لا يأتي في الكلام لفائدة وهو جار مجرى التوكيد في كلام العرب، والآخر يأتي في الكلام لفائدة[70]، ومن الأمثلة القرآنية التي ساقها على الاعتراض الذي يأتي في الكلام لفائدة قوله تعالى: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ» (الواقعة، 75)، ففي الآية اعتراضان: أحدهما «وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ» لأنه اعتراض بين القسم، الذي هو «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ» وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر،بين الموصوف الذي هو «قسم» وبين صفته التي هي «عظيم» ،وهو قوله تعالى «لو تعلمون». ولو جاء الكلام في السياق القرآني غير معترض فيه لوجب أن يكون «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ». إلا أن هذا الاعتراض بينَ القسمَ وجوابه قد جاء لفائدة هي تعظيم لشأن المقسم به في نفس السامع ،ألا ترى قوله تعالى «لو تعلمون» اعتراضاً بين الموصوف والصفة، ذلك أوقع في الأنفس، لتعظيم المقسم به، أي إنه من عظيم الشأن وفخامة الأمر بحيث لو علم ذلك لوفي حظه من التعظيم، فالفائدة المتعلقة بالاعتراض تتجه صوب السامع (المخاطب)، وهذا مثل قولنا: «إن هذا الأمر لعظيم، بحيث لو تعلم يا فلان عظمه، لقدرته حق قدره»، فإنّ ذلك يكبر في نفس المخاطب، ويعظم موقعه عنده ،ويبقى متطلعاً إلى معرفة عظمه، ويترامى به وهمه إلى أعلى المنازل[71]. وقد جعل ابن الأثير هذا النوع من الاعتراض من أقسام شجاعة العربية؛ لأن فهم السياق القرآني المتضمن للاعتراض يحتاج إلى تأويل سياقي مبني على معرفة ثرّة بها.

وأما القسم الثاني من الاعتراض وهو الذي يأتي في الكلام لغير فائدة، فهو ضربان: الأول يكون دخوله في التأليف كخروجه منه، لا يؤثر حُسناً ولا قبحاً، فمن ذلك قول النابغة:

يقول رجال يجهلون خليقتي

لعل زياداً لا أبالك غافل

فقوله «لا أبا لك» اعتراض لا فائدة فيه وليس يؤثر في البيت حُسناً ولا قُبحاً.

وأما الضرب الثاني الذي يكون مؤثراً في الكلام نقصاً، وفي المعنى فساداً فما جاء منه قول بعضهم

فقد والشك بيّن لي عناءٌ

بوشك فراقهم صُرَدٌ يصيح

فمن رديء الاعتراض في البيت أنه فصل بين قد والفعل الذي هو «بيّن»، وذلك قبيح لوجوب اتصال «قد» بما تدخل عليه من الأفعال.وقد فصل بين المبتدأ الذي هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء بقوله «بيّن» وفصل بين الفعل الذي هو «بيّن» وبين فاعله الذي هو صرد بخبر المبتدأ الذي هو عناء ،فجاء البيت الشعري بيّن القبح الذي لا خفاء فيه[72].

ومن الملاحظ أن الشواهد المدرجة في الضرب

الثاني من الاعتراض هي شواهد شعرية فقط، وعلة ذلك أن القرآن الكريم لا يأتي لغير فائدة، إذ لكل حرف فيه إعجاز، ولكل آية بيان .

العدول الصّك الجديد للعُمْلة البلاغية القديمة :

إن دعوى «تجديد التراث» التي أطلقها الدارسون أحيت الموروث البلاغي القديم، من خلال معالجة التراث القديم بمفاهيم نقدية حداثية، وهذا نجده جلياً في مصطلح «شجاعة العربية» الذي هو مصطلح أصيل في ثقافتنا وموروثنا العربي البلاغي، وقد لاقى هذا المصطلح في النقد الحديث اهتماماً من الدارسين جاء هذا الاهتمام في ضوء سعيهم لدراسة مباحث البلاغة في ضوء النقد الحديث، فارتبط المصطلح القديم بمصطلحات أسلوبية حديثة مثل: العدول، والانزياح. وذلك يعني أن تراثنا النقدي والبلاغي احتوى جذور هذه المصطلحات الحديثة، وعبّر عنها بمصطلحات بلاغية أخرى مثل شجاعة العربية والالتفات، ممّا يؤكد صورة المثاقفة الحاصلة بين الشعرية العربية القديمة والشعرية العربية الحديثة، وهذايجعل أقسام شجاعة العربية والمصطلحات الغربية مثل العدول والانزياح وجهين لعملة واحدة، تلتقي حول مفهوم واحد هو الإتيان بصياغات وتراكيب جديدة مخالفة للسابق ومعدولة عنه.

والانزياح بوصفه انحرافاً عن الطريقة العادية المتوقعة في التعبير، يشكلّ مقوماً من مقومات الشعرية،إذ الشعرية في أحد معانيها «الطاقة المتفجرة في الكلام المتميز بقدرته على الانزياح، والتفرد، وخلق حالة من التوتر» [73]، كما أنّه يُعدّ من أهم الظواهر التي يدرسها علم الأسلوب؛ ذلك أن المدخل الانزياحي ينظر إلى الأسلوب الأدبي بوصفه انحرافاً أو عدولاً أو انزياحاً عن الأسلوب المعياري في اللغة العربية، إما على مستوى التركيب بحيث يكون فيه الانحراف في الخروج على قواعد اللغة، وإما على مستوى الدلالة بحيث يتمثل الانحراف في اللغة المجازية وذلك بالخروج على ما تواضعت عليه اللغة.

إن أسلوبية التعبير هي التي ينبغي أن تكون محط النظر النقدي لعنايتها بدراسة القيمة الأسلوبية لأدوات التعبير، وقد أشار جون كوهن إلى نوعين من الانزياح الأسلوبي: الانزياح الاستبدالي وهو الذي يحدث في مستوى اللغة كما في الاستعارة وغيرها من الأساليب البيانية. والانزياح السياقي ،وهو موضوع بحثنا،الذي يحدث في مستوى الكلام بأنماط متعددة كالقافية والحذف والتقديم والتأخير والالتفات وغيرها[74]

وجدير بالذكر أن الانزياح السياقي عنيت به مدونات النقد العربي القديم لصدوره عن أساليب لغوية،كان التأسيس لها في مراحل بدايات النقد العربي .

أما ما يتعلق بالعدول فإن الوقوف على مفهومه يجعلنا نقترب من أوجه التشابه بين وجهي العملة النقدية، فالعدول «نقل الدلالات من سياقاتها المألوفة إلى سياقات أخرى مغايرة بحيث تشترك هذه الانحرافات في سلسلة من العلاقات الانزاحيّة تنشأ عن التصادمات النحوية بإخراج الكلمات من مجال تصنيفها المعهود إلى نوع من الهندسة الاستنباطية يعيد رسم الحروف وتركيب الجمل وبناء الصور وانتظامها في تكامل بيوطيقي (شعري) متميز، وتلك هي استاطيقا (جمال) الكلمة، أن تجعل الشكل منظوراً إليه في ذاته، في قدرته على اكتساب تميّز آخر»[75].

ومن هنا فإنّ مثل هذا التعريف يجعل العدول من أهم مباحث الأسلوبية القائمة على الانتهاك الذي يحدث في الصياغة ،كما يفسر لنا سبب ارتباط شجاعة العربية بمفهوم العدول الذي عرف بمترادفات عديدة أهمها: الالتفات، والتوسع، والحمل على المعنى، والتقديم والتأخير، وكلها مترادفات «تدل في آن واحد على قوة الكلام المنزاح وإقرار منزلته التي خصّت بميزات وتجوزات لم يسمح لأي أداء كلامي أن يحظى بها»[76]. لذا دارت مباحث المعاني في كثير

من جوانبها حول العدول عن النمط المألوف على حسب مفهوم أصحاب اللغة وتقاليدهم في صناعة الكلام، وهذا العدول يمثل الطاقات الإيحائية في الأسلوب. ومن المُلاحظ أن علم البلاغة يتأسس على أبواب تقوم أساساً على العدول في اللغة عن مستوى استخدامها المألوف، ومثل هذا التوجه البلاغي يؤدي بالضرورة الى إخضاع النص لدرجات من الانزياح تحقيقاً لذلك الهدف ووصولاً الى مستوياته، وهو يمثل قيمة تعبيرية أو منهجاً أسلوبياً في تكملة المباحث المنضوية تحت شجاعة العربية التي تعتمد في أغلبها على الانحراف عن النسق المثالي، ولكن بصورة متعددة إما عن طريق الانتقال من صيغة إلى صيغة، أو الحمل على المعنى، أو بالحذف والزيادة. وكانت وسيلة البلاغيين في معظم هذه الأبواب تقوم على «التقدير» سواء بالزيادة أو الحذف أو بالتقديم والتأخير وغيرها[77]. وقد أوضح عبد الحكيم راضي أن ذلك التقدير يكون من خلال مفهوم يُغفل ظاهرة العبارة وصولاً إلى باطن يعتمد على تشكيل مثالي افتراضي يستمد معالمه من تقديرات النحاة وتأويلاتهم[78].

وقد وضّح عبد الحكيم راضي الترابط بين العدول وشجاعة العربية بأنّ «النحاة واللغويين قد أقاموا مباحثهم على مثالية اللغة في مستواها العادي، بينما سار البلاغيون في اتجاه آخر، حيث حرصوا على رعاية صفة مخالفة في الاستخدام الفني للغة ،وأقاموا مباحثهم على أساس انتهاك هذه المثالية والعدول عنها في الأداء الفني. وليس معنى هذا إنكار البلاغيين للمستوى المثالي... بل إن ذلك يؤكد إدراكهم لتحققه، بحيث جعلوه الخلفية الوهمية وراء الصياغة الفنية التي يمكن أن يقيسوا إليها عملية العدول في هذه الصياغة»[79].

وقد تحدث البياني الغربي جريماس عن مستويات اللغة، فوجد أن اللغة تنطوي على مستويين الأول: مستوى الطاقة وهو يتحكم في موضوع الخطاب المراد دون الالتفات فيه إلى سلامة التركيب النحوي، أي العدول في الخطاب وهذا المستوى يهدف إلى شحن الخطاب بطاقات أسلوبية وجمالية تحدث تأثيراً خاصاً بالمتلقي. والثاني يسميه مستوى المعرفة وهو يصف، في تشكيل نحوي سليم، معرفة العالم[80]. ويقرر أن قوة اللغة تعني قدرتها على أن تقبل أي شيء متاح، وأن تنحّي أي شيء من أجل تحقيق معانيها[81]، وكأن جريماس هنا يتحدث عن قوة اللغة الانزياحية.

إن دلالة العدول في السياق تشير إلى المخزون الدلالي لكيفيات الأداء الأسلوبي المتميز، وتفحص القدرة الكامنة لمستوياته التي تعجز بنية الألفاظ المألوفة عن تحقيقها؛ ولذلك يصبح البناء القائم على الانزياح ممتخضًا عن إنتاج علاقة غيابية وحضورية في النص، الحضورية هي ما هو منتج وموجود في النص والغيابية ما يبحث عنه القارئ وراء النص (المعنى الخفي أو المسكوت عنه في النص)[82]، لذا «حين يصبح العدول في هذا المستوى فإن الأمر يدعو إلى تضافر إلزامي لتلاحم الدلالي والتركيبي في تشكيل إبداعي جديد يتضمن امتحان القوى القارئة بكل استراتيجياتها التأويلية والتقبلية الواردة والمحتملة»[83]. وفي السياق البلاغي تنهض شجاعة العربية على خَرْق النظم التركيبية وعلى افتراض وجود نمط بلاغي لغوي سابق تنزاح عنه أو تخرج عنه في أشكال تعبيرية وفنيّة شتى، وهي أقسام شجاعة العربية كالالتفات، والحمل على المعنى، وعكس الظاهر وغيرها، وذلك يقود إلى استعمال الأساليب القائمة على العدول والانزياح لتصبح قادرة على إحداث التأثير، وجلب التأمل والإنصات[84].

عدول الالتفات والمكوّن الجمالي:

ظهر سياق العدول ظهورًا لافتًا في باب الالتفات، وقد كان ظهوره بوصفه خاصيّة تعبيرية تتميز بطاقات الإيحائية من حيث كان بناء الالتفات يعتمد على العدول عن أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول، فالالتفات من أهم المقولات القديمة التي تحوي بين طياتها بذور فكرة العدول والانزياح

التي يمكن التعبير عنها بصيغ أخرى مثل التوسع، والتي تؤسس للخطاب الأدبي جمالية خاصة. ومثل التأويل كون الالتفات يمثل أسلوباً دلالياً وانتقالياً، يتم فيه تحويل الخطاب من صيغة معينة إلى صيغة أخرى مختلفة عنها، وفي ذلك انتقال من سياق كلامي إلى سياق كلامي آخر، وبطرائق متعددة، وقد حصرها ابن الأثير في «الجامع الكبير» في أنماط محددة يتم من خلالها تسامي الدلالة في القرآن الكريم.

إن ربط الالتفات بالعدول يجعله ينطوي على دلالات نفسية تكتنف عملية التخاطب، إذ تتجه تلك الدلالات في أغلبها إلى المخاطب، وقد أشار ابن الأثير إلى مثل ذلك عندما وضّح «أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب... قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب»[85]، فعدول الالتفات ظاهرة أسلوبية تمتلك القدرة على لفت انتباه القارئ ومداعبة حسه التأملي بجعله يتأمل في الخطاب، وينتبه إلى بنائه القائم على أعمال التبصر واجتهاد التأويل بغية تحليلها والوقوف على بعدها الجمالي[86].

ويحقق الالتفات تنشيطاً لوعي القارئ وإعمالاً لفكره أن الغرض منه (أي المعنى) يكون مضمراً في الشيء غير المعلن في النص، والذي يتوصل إليه القارئ من خلال ممّارسته لعملية تأويل نصي ليتجلى له المعنى المضمر عن طريق فهمه لما هو موجود أمامه «الدال الحاضر»، فالالتفات «من الفنون ذات الأثر الفعال في تنويع أنماط الكلام تلبية لبواعث نفسية شتى ومقتضيات أحوال مختلفة في التحدث عن أجزاء الموضوع الواحد بأساليب مختلفة في مغايرة لظواهر الأحوال العادية»[87]. ومن الأمثلة التي ساقها ابن الأثير قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» (يونس، 22).

إن فهم السياق القرآني السابق يتحقق في إعمال القارئ لحسّه التأويلي، وحسن التمعن للوقوف على الفائدة من خاصية الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، فقد أحدث سياق الغيبة (وجرين بهم) فائدة وهي أن الله ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، كالمخبر لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم والتقبيح؛ لذا جاء سياق الخطاب التفاتاً من الخطاب إلى الغياب لتحقير شأن المخاطب»[88]. فالالتفات الحاصل في الشاهد القرآني كسر جمود الخطاب وحقق بانزياحه غاية بلاغية ما كانت لتحقق لولا ذلك الانزياح أو العدول في الصيغة. فصيغة التأويل هي الصيغة القادرة على إدراك مسالك أخرى لالتباسات الصور الالتفاتية في استجابتها للانسياب الجمالي الذي تحدثه، بانتقالها من سياق يكون فيه البناء على صورة معينة إلى ما ينبغي أن تكون عليه هذه الصورة في سياق آخر[89].

ويبدو أن ابن الأثير جعل الالتفات من «شجاعة العربية»، وذلك لأن الالتفات مرهون بأمرين: التقبل، والتأويل، إذ يرتبط كل منهما بالقارئ وقدرته على تصويب ملكته التأملية وسيلةً لاكتشاف الصور الالتفاتية[90]؛ أما التقبل فهو يعتمد على كون الخطاب موجهاً إلى سامع أو متلق أو قارئ، وعلى القراءة أن تضيف بعض المعاني المنفلتة والدلالات الغائبة، ومن جهة التأويل يجري التركيز على منشئ الخطاب (القصدية) واستبعدوا وجود القارئ لأن عملية الالتفات مرتبطة أساساً بالناص، وإليه تعود فعنده يكون مضمون القصد[91]. ومن الشواهد القرآنية التي يقدمها ابن الأثير قوله تعالى: «قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ» (هود، 54–53).

تظهر في الآية الالتفات في الأفعال فقد عدل عن صيغة المستقبل إلى صيغة الأمر، فلم يقل «وأشهدكم»

بل قال «واشهدوا» والوصول إلى المعنى الخفي «الدال الغائب» يفترض من القارئ ممّارسة عملية تأويلية، وإعمال فهمه للوقوف على فائدة العدول، فبين ابن الأثير أن ذلك العدول ليكون موازناً له وبمعناه لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت في معنى يثبت التوحيد، ويشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون من هود بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم، لذلك عدل عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجاء به على صيغة الأمر[92]. فالالتفات هنا جاء للاستهانة والإقلال من شأن المخاطب ويبدو أن كل الأمثلة التي ساقها ابن الأثير على الالتفات دقيقة المغزى لطيفة المأخذ، عجيبة الفوائد لذا احتاجت إلى التأويل وتأبّت على الفهم الأول.

عدول عكس الظاهر:

ويقع عكس الظاهر في صميم التأويل، وهو يدل على المعنى وضده (الغيرية الضدية) لذا يُعدّ من أظرف التأويلات المعنوية[93]، ويضرب المثال عليه بقول علي بن أبي طالب عن مجلس الرسول بأنه: «لا تثنّى فلتاته» أي لا تذاع فلتاته ويعلق ابن الأثير بأن ظاهر اللفظ أنه كان ثمّ فلتات غير أنها لا تذاع، وليس الأمر كذلك، بل أراد أنه لم يكن ثمة فلتات فتثنى، والقرينة بذلك ما ثبت في النفوس من أن مجلس الرسول منزّه عن فلتات تكون به[94].

إن المثال السابق يكشف عن حاجة المتلقي إلى التأويل لفهم المعنى المستور من النص، والوقوف على الفائدة المرجوّة منه، وهي تعظيم شأن مجلس الرسول، وبذلك تكمن قدرة التأويل على «الكشف عن العلاقات والترابطات التي لم يُكشف عنها من قبل، أو التي لم يُفكر فيها من قبل. إنها علاقات وترابطات ما كان من الممكن الحصول عليها لو بقي التأويل في حدوده الدنيا أو المعتدلة»[95].

وجدير بالذكر أنّ مصطلح «عكس الظاهر» ورد ذكره عند ابن جني وصاحب الجامع الكبير[96]، إلا أنهما لم يقدما له تعريفاً، فالتقطه ابن الأثير الحلبي ونوّه الى أخذه من سابقيه ،وأضاف بأن قدّم له تعريفاً يوضح حقيقته فقال: «ومن أقسام شجاعة العربية قسم يُقال له «عكس الظاهر» وحقيقته أن تذكر كلاماً يدل ظاهره على معنى، ويراد به معنى آخر عكسه[97]، ومثّل له بقوله تعالى: «وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» (البقرة، 61)، فقوله بغير حق» تعني أن ثمة من يقتل بحق، ولكن المراد هو أنه لا يُقتل نبي إلا بغير حق[98].

ومن الشواهد التي تساق على عكس الظاهر ،قول عمرو بن أحمر الباهلي في وصف فلاة:[99]

لا تُـفْـزِعُ الأرانبَ أهوالُها

ولا نرى الضبّ فيها ينجحرُ

فظاهر المعنى أنّ ثمة «أرانب» تفزع من أهوال ومخاطر المفازة والصحراء، وثمة «ضب» لكنه غير منجحر، وليس المراد كذلك، بل المعنى أنه لم يكن ثمة ضب أصلاً ،وليس هناك قرينة تخصّص البيت الشعري حتى يُفهم المقصود منه، لكن قد تكون القرينة الذهنية دالة على ذلك وهي شدة أهوال المفازة نفسها التي لا تُمكّن الأرانب السكون فيها ،وكذا الضبّ أيضاً.

عدول الحمل على المعنى:

تظهر أهمية الحمل على المعنى بوصفها وسيلة من وسائل فهم العدول اللغوي، فأقسام الحمل على المعنى كتأنيث المذكر وتذكير المؤنث، وتصور الواحد للجماعة والجماعة للواحد كلها تقوم على اختراق اللغة والعدول بها عن صيغتها المثالية. وقد واجه المفسرون والبلاغيون بعض الآيات المُشكلة التي يصعب الوصول إلى حقيقة كنهها لأنها قامت على أساس العدول، خاصة مسألة التذكير والتأنيث كقوله تعالى: «الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (المؤمنون، 11)، فالإشكالية تكمن في الضمير (فيها) وهو ضمير مؤنث ولكنه يعود على مذكر وهو (الفردوس)، هنا تظهر الحاجة إلى فهم تأملي وإعمال فاعلية التأويل والتفسير، فكان الحل الأمثل لمثل هذه الظواهر القرآنية كامن في «الحمل على

المعنى» فبيّن الزركشي أنه أنّث الفردوس وهو مذكر حملاً على معنى الجنة وهي مؤنث[100].

ومن هنا أولى البلاغيون القدامى هذه المسألة قدراً كبيراً من النظر بوصفها متيفات تتكرر كثيراً في تراثنا البلاغي والنقدي القديم، كقولهم (شكرت من أحسنوا إلي على فعله) وقولهم (شابت مفارقه) وإنما هو مفرق واحد[101]، فالحمل على المعنى واسع في اللغة، والعرب كانت إذا حملت على المعنى لم تكد تراجع اللفظ[102]. ويبدو أن ارتباط الحمل على المعنى بالعدول آت من أن التأليف في هذا القسم «دقيق المسلك، بعيد المذهب، يحتاج إلى فضل معاودة وزيادة تأمل»[103]، فمن المعروف أن فضل المعاودة وزيادة التأمل مرتبطة بالتأويل الناتج عن صيغة العدول، ويضرب ابن الأثير على ذلك الأمثلة العديدة منها قول ذي الرمة[104].

وميّة أحسن الثقلين خدّاً

وسالفةً وأحسنهُ قَذالاً

فقال الشاعر (وأحسنه) فأفرد الضمير وكان حقه أن يقول (وأحسنهم) وهو قادر على ذلك. ويعلق ابن الأثير على ذلك بأن هذا يدل على قوة اعتقاد الشعراء في أحوال المواضع، وكيف ما يقع فيها. ألا ترى أن هذا الموضع –هذا قول ابن الأثير– موضع جمع، وقد سبق في الأول لفظ الجمع فترك اللفظ وموجب الموضع وعدل إلى الإفراد من غير ضرورة[105].

العدول في سياق التقديم والتأخير:

رصد البلاغيون القدامى كثيراً من التعبيرات التي انداحت ضمن سياق التقديم والتأخير، وما يمكن أن تتغير به الدلالة تغيّراً يوجب لها المزية والفضل بدلالتها الجديدة[106]، غير متناسين أن الدافع للحديث عن هذا السياق في هذا الموضع أن البلاغيين لا يهتمون بمسألة الرّتب في الجملة «وإدراك البلاغيين لهذه الحقيقة النحوية أتاح لهم أن يضيفوا إلى مباحثهم بعداً جمالياً في تركيب الكلام، من خلال العدول عن الترتيب المألوف إلى ترتيب آخر، يتميز بقدرته على إبراز الدلالة بتقديم جزء على آخر أو تأخيره عنه، مع الاهتمام بالناحية التطبيقية...، ورصد سياقات معينة للخروج منها بالتنويعات التي تمثل ناحية فردية بقدر ما تمثل ظواهر أسلوبية ترتبط بمجال تعبيري محدد»[107].

ونستطيع أن نتحقق «الجمالية البلاغية» المستوحاة من سياق التقديم والتأخير بالوقوف على شاهد قرآني أورده ابن الأثير وهو قوله تعالى: «لا فيهَا غَوْلٌ» (الصافات،47)، فالسياق القرآني يتحدث عن الخمرة وهنا قدّم الظرف، وتقديم الظرف أفاد التفضيل وذلك تفضيل لخمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها الخمور الدنيوية وكأنه قال: «ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة»[108]. وأما قولنا «لا غول فيها» أي بتأخير الظرف يقصد أن ينفي عن الخمرة أنها تغتال العقل دون أن يفضلها على غيرها.

وفي هذا الشرح دلالة على ما يحققه أسلوب التقديم أو التأخير في النص القرآني أو في غيره من فائدة، بيد أنّ هذه الفائدة لا تنحصر في مجال، بل تتعدد الفوائد؛ فهي تجدد تجربة المتلقي بالنص ونسيجه المستحدث، وتنشئ ما بين الكلمات ألفة جديدة تنقلها من سياقها التركيبي إلى سياق مغاير يتم فيه إعادة انتظام الجمل انتظامًا يلفت القارئ، كما أنها تجعل المتلقي ينشط حسّه الجمالي في إدراك الصورة المتغيرة واستيعاب فارق التغيير وإحداث نوع من السحر الناتج عن خرق توقعات المتلقي، وأخيراً توحي بذكاء الشاعر المبدع في تغيير مواقع الكلمات وإخراجها في علاقات مبتكرة يساعد على إنعاش مكونها الدلالي[109]. ومن الملاحظ أن الفوائد السابقة لها اعتبارات، فمنها ما يرتبط بالمتكلم من باب الاهتمام بها أو تبركا به، ومنها ما يرتبط بالمتلقي من حيث تشويقه إلى خبر ما[110]. فإذا نظرنا إلى قوله تعالى: «وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّه »(الحشر،2)، وجدنا

تقديم الخبر (مانعتهم) على المبتدأ (حصونهم) والفائدة في ذلك التقديم «دليلاً على فرط اعتقادهم في حصانتها وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم، وفي تصيير ضمير(هم) اسماً لأنَّ، وإسناد الجملة إليه، دليل على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عزة وامتناع، لا يبالي معها أحد بتعرض طامع أو قصد قاصد. وليس شيء من ذلك في قولك: «وظنوا أن حصونهم ما نعتهم أو تمنعهم»[111]. فلولا التقديم والتأخير لما حصلنا على مثل هذه الفائدة التي تحدد تجربة المتلقي بالنص، وتنشط حسّه الجمالي في إدراك الصورة المتغيرة وتوحي بذكاء المبدع،وهو الله عزّوجلّ، وما يحدثه من سحر ونظم.

إن سياقات التقديم والتأخير تأتي لإفادة بلاغية هي الاختصاص أو التخصيص، وقد نص ابن الأثير على هذه الفائدة في تعليقه على الشواهد القرآنية التي ساقها في هذا السياق، فهو يرى أن تقديم المفعول على الفعل، وتقديم الخبر على المبتدأ وتقديم الظرف وتقديم الحال والاستثناء كلها تأتي لإفادة تخصيص. ومن الأمثلة على ذلك ما يورده ابن الأثير فيقول: «فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل، وإنما تعمد إلى ذلك قصداً للاختصاص، ألا ترى قولك «زيداً ضربت» تخصيصاً له بالضرب، إذ يحتمل أن يكون الضرب لغيره»[112]، وقوله: «وفي هذا النحو، قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[113] فإن قوله «إياك نعبد» تخصيص له بالعبادة، وقوله: «وأما تقديم خبر المبتدأ عليه، فإنه لا يعمد إليه أيضاً إلا لضرب من الاختصاص، كقولك «زيدٌ قائمٌ» و«قائم زيد» فقولك «قائم زيد» قد أثبت له القيام لا محالة، وقولك «زيد قائم» أنت بالخيار في إثبات القيام له أو نفيه عنه»[114]. ومسألة الاختصاص جرّت البلاغيين إلى دراسة أنماط من التعبير تقوم أساساً على العدول عن الصياغة المألوفة إما في حالة التقديم بحيث يكون التقديم هو الأبلغ لموضع الاختصاص، وإما في حالة التأخير بحيث يكون التأخير هو الأبلغ لفائدة تقتضي ذلك[115].

ويبدو أن مسألة الاختصاص جرّت صاحب «جوهر الكنز» للتحدث عن حالات من التقديم لا نجدها عند صاحب «الجامع الكبير»، فالتقدم عنده له درجات يحكمها العقل: كتقدم العلة على المعلول، ثم التقدم بالذات مثل تقدم الواحد على الاثنين، ثم التقدم بالشرف كتقديم الأنبياء على الاتباع، ثم التقدم بالزمان والمكان[116]. فكل هذه الحالات تمثل عدولاً عن الصياغة التي تعتمد على عقلانية الأداء لأغراض البلاغة يأتي الاختصاص في معظمها.

لقد أدرك البلاغيون لما لسياقات التقديم والتأخير من قدرة على إضفاء البعد الجمالي في تركيب الكلام من خلال العدول، كما أدركوا أن الكلام بترتيبه المعتاد لا يقدم أسلوباً بالمعنى الأدبي، ويبدو أن هذا الأمر هو ما جعل عبد القاهر الجرجاني يفرد للتقديم والتأخير باباً واسعاً في كتابه «دلائل الإعجاز» ليخلق من خلاله صوراً فنية متميزة تتأسس على شجاعة الطرح والإقدام في التفسير.

الخاتمة:

عالج هذا البحث قضية بلاغية هي «شجاعة العربية» من حيث حضورها الفاعل في المدونات البلاغية وامتداداتها في النقد الحديث، وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج من أهمها:

أولاً: ورد مصطلح «شجاعة العربية» عند أهل البلاغة في مرحلة متأخرة من بدايات القرن السابع تقريباً خاصة عند ابن الأثير الجزري ،وبدايات القرن الثامن عند ابن الأثير الحلبي، ولم يكن مصطلحاً مستقلاً بل اندرج تحته أقسام من علم البيان والبديع، كان العرب قد تحدثوا عنها قديما في تضاعيف كتبهم، إلا أنها مع نهايات القرن الرابع اندرجت تحت عنوان واحد هو «شجاعة العربية»، ثم لمعت التسمية مرّة أخرى عند البلاغيين العرب مع بدايات القرن السابع، ويبدو أنّ هذا الإدراج كان له ما يسوّغه عندهم.

ثانياً: أقسام شجاعة العربية عند النحويين تختلف عنها عند البلاغيين؛ فابن جني جعلها في أربعة قضايا هي: الحذف والزيادة، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف. بينما جعلها ابن الأثير الجزري في ستة أقسام هي: الالتفات، وعكس الظاهر، والحمل على المعنى، والتقديم والتأخير، والاعتراض. أما ابن الأثير الحلبي فيعيد الأقسام نفسها لكن بطريقة مغايرة ويضيف عليها أقساما من التقديم يجعلها من علم البديع.

ثالثاً: أقام البلاغيون مباحثهم في شجاعة العربية على مبدأ انتهاك المثالية وهي الكلام في مستواه العادي، والعدول عنها في الأداء الفني، وبذلك تأسست مباحث شجاعة العربية على قضية المعنى وخصوصية الدلالة، ذلك أنّ هناك معنىً يقصد إليه منشئ الخطاب، ويمكن تحقيقه من خلال أي قسم من أقسام شجاعة العربية.

رابعاً: خلص البحث إلى أنّ مفهوم المصطلح البلاغي بما يتضمنه من أقسام له حضور بارز في النقد الحديث من خلال قضايا أسلوبية مثل العدول والانزياح، ممّا يؤكد احتواء التراث البلاغي لجذور هذه المصطلحات الحديثة، أو لنقل تأكيد صورة المثاقفة بين الشعريتين.إلا أنّ هذا الحضور يتجلى في المفهوم وليس في المصطلح؛ فقد اختلفت المصطلحات وتجددت مع بقاء المفهوم؛ لأن السياق الثقافي والمعرفي والتاريخي الذي تولّدت فيه المفاهيم الحديثة مباين للسياق الثقافي والتاريخي لتولد المصطلح القديم،ممّا يعني وجود فوارق بين المصطلحات من حيث الأصول والاجراءات.

خامساً: إنّ ظاهرة الانحراف عن المثال في صورها التي جاءت ضمن «شجاعة العربية» كانت المحور الذي دارت حوله كل المباحث الأساسية التي تشكل صلب النظرية العربية في اللغة الأدبية ،وأن حرص البلاغيين على تأكيد هذه الصفة قد أدى بهم إلى سلوك أساليب معينة ،واعتناق آراء خاصة،وتبني وجهات نظر من شأنها المساعدة على إبراز هذه الخاصية .

الإحالات والهوامش:

1. أول من أسماه من علماء النحو بهذه التسمية ابن جني في «الخصائص»، ومن علماء البيان ابن الأثير في «الجامع الكبير»، وأول من نسبه إلى البديع ابن الأثير الحلبي في كتابه «جوهر الكنز».
2. عبد الواحد حسن الشيخ، دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير، مؤسسة شباب الجامعية، 1986، ص274.
3. يحيى بن حمزة بن علي العلوي، الطراز، بيروت : دار الكتب العلمية ، الجزء الثاني، 1982، ص131–132.
4. سليمان بن عبد القوي البغدادي الطوفي، الإكسير في علم التفسير، تح: عبد القادر حسين، القاهرة: مكتبة الآداب، 2002، ص175.
5. ابن الأثير الجزري، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور، تح: مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1956، ص117–118.
6. المصدر السابق، ص98.
7. ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، م1900،8، باب(شَجُعَ)، وانظر: المعجم الوسيط، ج1، ص473. بطرس البستاني، محيط المحيط، بيروت: مكتبة لبنان، 1977، ص453.
8. أبو عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: المجمع العلمي الاسلامي، ط5، الجزء الخامس، 1969، ص32.
9. نجم الدين ابن الأثير الحلبي، جوهر الكنز، تح: محمد زغلول سلاّم، الإسكندرية :منشأة دار المعارف، ص118.
10. المصدر السابق، الصفحة نفسها.
11. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، 1990، ص137.
12. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجه، دار الكتب الشرقية، 1964، ص143.
13. جمال مقابلة، اللحظة الجمالية في النقد الأدبي، عمان: دار أزمنة، 2007، ص181.ويُقصد باللحظة الجمالية الإحساس أو الشعور الذي يعتري المرء بقيمة العمل الفني، فهي خبرة مشتركة بين الفنان والمتلقي، ومن ثم صفة جوهرية في عملية التذوق.
14. أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح: محمد علي نجار، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1990،4، 2: 392.
15. ابن الأثير الحلبي، جوهر الكنز، ص118–119.
16. ابن الأثير الجزري، الجامع الكبير، ص99.
17. المصدر السابق، ص105.

18. ابن الأثير الحلبي، جوهر الكنز، ص124.

19. الجزري، الجامع الكبير، ص98.

20. ابن جني، الخصائص، 2 :362.

21. يُسمي النحاة واللغويون العرب القدامى الأداء المثالي «أصل المعنى» أو «أصل الكلام» مشيرين بذلك إلى اللغة العادية المباشرة.راجع على التوالي:الخصائص،1: 317.والكشاف، 2: 276.والإيضاح،180. والمفتاح:137،78،48

22. ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تح محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، المجلد الثاني، 1998، 355.

23. ابن جني، الخصائص، 3: 267.

24. انظر يوسف بكّار، عكس الظاهر مصطلح عربي تليد، مجلة جذور، السنة الثامنة، العدد التاسع عشر، 2007، ص108–109.

25. يجعل ابن الأثير في كتابه المثل السائر شجاعة العربية مندرجة تحت باب الالتفات فيجعل الالتفات وشجاعة العربية وجهيّن لعملة واحدة، فالشجاعة تختص بأصحابها والالتفات تختص به اللغة العربية دون غيرها، انظر المثل السائر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة، 1973، 168.

26. انظر الجزري، الجامع الكبير، ص98.

27. يبدو أنّ ابن الأثير أخذ المصطلح من ابن جني وهو يشير إلى ذلك في كتابه، الجامع الكبير، 98.

28. الجزري، الجامع الكبير، الصفحة نفسها.

29. المصدر السابق، ص98.

30. نفسه، الصفحة نفسها.

31. جار الله الزمخشري، الكشاف، انظر تحليله للفاتحة 1: 13. وانظر 3: 338.وغيرها

32. انظر النقد الذي وجهه ابن الأثير الجزري للزمخشري في المثل السائر، 2: 135–136.

33. الحلبي، جوهر الكنز، ص118. يبدو أنّ ابن الأثير جعل شجاعة العربية من أقسام علم البديع لأنّ المدونات البلاغية أخذت تلخص البلاغة في علم البديع خاصة منذ مطالع القرن السابع الهجري.

34. حسين الرفايعة، ظاهرة العدول عن المطابقة في العربية، عمان: دار جرير، 2006، ص62.

35. الجزري، الجامع الكبير، ص99.

36. انظر مثلاً: محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية. خيرة حمر العين، شعرية الانزياح دراسة في جماليات العدول. يرى جان كوهن أن الشعرية هي عدول أسلوبي يقول: إننا نهدّ اللغة الشعرية إذن كواقعة أسلوبية في معناها العام، إن الشاعر لا يتحدث كما يتحدث الناس جميعاً بل إنّ لغته شاذة وهذا الشذوذ هو الذي يكسبها أسلوباً، فالشعرية هي علم الأسلوب الشعري.انظر بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي، الدار البيضاء: دار توبقال، 1986، ص15.

37. محمد عبد المطلب، البلاغة الأسلوبية، ص270–271.

38. انظر الجزري، المثل السائر، 2: 167.

39. الجزري، الجامع الكبير، 98–102، يضع ابن الأثير في كتابه «المثل السائر» التقسيمات الآتية: الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ويجعل منه الرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس والرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الجماعة. في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وعن الماضي إلى الأمر، في الأخبار عن الماضي بالمستقبل، ص167–181.

40. الجزري، الجامع الكبير، ص99. الشواهد نفسها موجودة عند الطوفي وابن الأثير في «جوهر الكنز».

41. المصدر السابق، ص99.

42. الجزري، المثل السائر، 2: 170.

43. عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص278.

44. الجزري، الجامع الكبير، ص99.

45. يوسف بكّار، «عكس الظاهر مصطلح عربي تليد»، مجلة جذور التراث، السنة الثالثة، العدد 19، 2005، ص96.

46. انظر: الجزري، الجامع الكبير، ص105، الحلبي، جوهر الكنز، ص123. الطوفي، الاكسير، ص183.

47. الجزري،الجامع الكبير، ص105. وانظر بكار، عكس الظاهر، ص104.

48. الجزري، الجامع الكبير، ص105.

49. ديوان امرئ القيس (طبعة صادر)،اللاحب :الطريق الواضح / سافه: شمّه / العود :الجمل المسّن/الديافي: نسبة الى دياف وهي قرية بالشام تُنسب إليها النجائب / جرجر: ردد صوته.

50. الطوفي، الإكسير، ص184.

51. هذه الأقسام تحدث عنها ابن جني تحت باب الحمل على المعنى، وناقشها من وجهة نظر نحوية، ثم ذكرها ابن الأثير في كتابه الجامع الكبير، ويبدو أنه استمدها من ابن جني فذكرها تحت باب الحمل على المعنى، ص106، ونظر إليها من وجهة نظر بلاغية ودلالية، ثم أعادها الطوفي في كتابه الإكسير، ص184، وذكرها ابن الأثير في جوهر الكنز دون أن يضعها تحت عنوان الحمل على المعنى بل جعلها من أقسام شجاعة العربية، ص123.

52. الجزري، الجامع الكبير، ص107.

53. المصدر السابق، ص106.

54. الحلبي، جوهر الكنز، ص124–125.

55. الجامع الكبير، ص108–109.

56. عبد الرحمن الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دمشق: دار القلم ،ط1، 1996، 1: 356.

57. الجزري، الجامع الكبير، ص109.

58. المصدر السابق، ص109.

59. نفسه، ص114 يبدو أنه اعتمد في حديثه عن الاستفهام على عبد القاهر الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز» انظر باب التقديم والتأخير، ص111 وما بعدها.

60. الحلبي، جوهر الكنز، ص125.

61. المصدر السابق، ص126.

62. جوهر الكنز، ص126.

63. المصدر السابق، الصفحة نفسها.

64. جوهر الكنز، ص126.

65. جوهر الكنز، ص127.

66. جوهر الكنز، ص127.

67. بد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، 1992، ص106.

68. الجزري، الجامع الكبير، ص118.

69. المصدر السابق، ص118.

70. نفسه، الصفحة نفسها.

71. الجزري، الجامع الكبير، ص118–119

72. المصدر السابق، 120–121.

73. أحمد مطلوب، الشعرية، مقال ضمن كتابه في المصطلح النقدي، منشورات المجمع العراقي، 2002، ص153 .

74. جون كوهن، بنية اللغة الشعرية، ص110.

75. خيرة حمر العين، شعرية الانزياح دراسة في جماليات العدول، الأردن: مؤسسة حمادة، 2001، ص27. يعرف مصطفى درواش العدول أنه الخروج من النمطي إلى اللانمطي. انظر خطاب الطبع والصنعة، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العربي، 2005، ص288، ويعرّفه عبد السلام المسدي: «احتيال الإنسان على اللغة وعلى نفسه لسدّ قصوره وقصورها معاً» انظر الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط2، 1982، ص106.

76. خيرة حمر العين، شعرية الانزياح، ص4.

77. عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص202.

78. المرجع السابق، ص205–206.

79. عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة، ص209.وانظر عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص269.

80. عز الدين إسماعيل، جماليات الالتفات، ضمن كتاب التراث النقدي في المحور الرابع، 1988، ص907–908.

81. المرجع السابق، ص908. هناك مستويات في التشكيل اللغوي: المستوى العادي: يقوم على الوظيفة الإبلاغية في الخطاب ويستعمل اللغة العادية المألوفة، والمستوى الإبداعي ويقوم على خرق المستوى المألوف للغة وانتهاك صيغ الأساليب الجاهزة.

82. منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1990، ص124.

83. خيرة حمر العين، شعرية الانزياح، ص13.

84. يرتبط الحديث عن شجاعة العربية بنظرية نقدية حديثة وهي نظرية التلقي والقراءة Reception Theory التي تركز على دور القارئ (المتلقي) وقدرته على تلقي نصّ ما وإعادة إنتاج النص، ولذلك كانت الدلالة النفسية المتعلقة بأقسام شجاعة العربية تتجه نحو القارئ (المتلقي أو المخاطب) وتسعى للتأثير فيه من خلال تلقيه للنص القائم على عدول الصياغة .انظر: ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، عمان: الدار الأبجدية، 1997، ص119 وما بعدها. موسى، خليل، من مصطلحات معجم النقد الأدبي المعاصر، دمشق، 2000، ص72.

85. الجزري، المثل السائر، ص169.

86. الجزري، الجامع الكبير، ص98. يبدو أن ابن الأثير اعتمد في كلامه على نصّ للزمخشري. انظر الكشاف، 1: 13-14.

87. جليل رشيد فالح، فن الالتفات في مباحث البلاغيين، مجلة آداب المستنصرية، العدد التاسع، 1984، ص63.

88. الجامع الكبير، ص100.

89. خيرة حمر العين، شعرية الانزياح، ص46.

90. المرجع السابق، ص45.

91. نفسه، ص51.

92. الجامع الكبير، ص101.

93. يوسف بكّار، عكس الظاهر، ص102.

94. الجامع الكبير، ص106.

95. إمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائية والتفكيكية، ص273، تر سعيد بنكراد، ترجمة، المركز الثقافي العربي، 2000، ص173.

96. جوهر الكنز، ص118.

97. المصدر السابق، ص123.

98. جوهر الكنز، ص123.

99. شعر عمرو بن أحمد الباهلي، جمع وتحقيق حسين عطوان، دمشق: مجمع اللغة العربية،(د.ت)، ص67. وشرح البيت :لا تُفزِع أهوال تلك المفازة الأرانب، لأنه لا أرانب فيها حتى تفزع من أهوالها، لأنه لا يمكنها السكون فيها لشدة أهوالها، ولا شوهد الضب فيها منجحراً لأنه لا ضبّ فيها ينجحر.

100. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية،2001، 3: 36.

101. لمصدر السابق، 3: 36.

102. الجامع الكبير، ص108. وانظر ابن جني، الخصائص،2 : 420

103. المصدر السابق، ص106.

104. ديوان ذي الرمة، شرح الخطيب التبريزي، كتب مقدمته مجيد طراد، دار الكتاب العربي، 1993، 1: 511. سالفة: صفحة العنق/ قذالاً: أعلى كل شيء.

105. الجامع الكبير، ص107.

106. عبد المطلب ، البلاغة والأسلوبية، ص329.

107. المرجع السابق، ص337.

108. الجامع الكبير، ص111.

109. خيرة حمر العين، شعرية الانزياح، ص38-39. لمعرفة المزيد من الفوائد انظر صالح الشاعر، ظاهرة التقديم والتأخير في النحو العربي، مثال الكتروني www.ilsalihalshair.jeeran.com.

110. انظر هذه الاعتبارات عند محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص334-336 وانظر، ص270، وانظر 282ص وما بعدها.

111. الجامع الكبير، ص110.

112. المصدر السابق، ص109.

113. نفسه، الصفحة نفسها.

114. نفسه.

115. نفسه.

116. جوهر الكنز، ص126-127.

قائمة المصادر والمراجع العربية والاجنبية:

- القرآن الكريم.
- إسماعيل، عز الدين: جماليات الالتفات، ضمن كتاب التراث النقدي في المحور الرابع، 1988.
- إيكو، إمبرتو: التأويل بين السيميائية والتفكيكية، تر سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، 2000.
- البستاني، بطرس :محيط المحيط، بيروت: مكتبة لبنان، 1977.
- الجاحظ، أبو عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: المجمع العلمي العربي الاسلامي،

ط5، الجزء الخامس، 1969.

- الجزري، ابن الأثير: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور، تح: مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1956.
- الجزري، ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة، الجزء الثاني، 1973.
- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الاعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، 1992.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح: محمد علي نجار، دار الشؤون الثقافية العامة، الجزء الثاني، ط4، 1990.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الجزء الثاني، 1998.
- الحلبي، نجم الدين ابن الأثير: جوهر الكنز (تلخيص البراعة في أدوات ذوي اليراعة)، تح: محمد زغلول سلاّم، الإسكندرية: منشأة دار المعارف، 1900 .
- حمر العين، خيرة: شعرية الانزياح دراسة في جماليات العدول، الأردن: مؤسسة حمادة ،2001.
- خضر، ناظم عودة: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، عمان: الدار الأبجدية ، 1997
- درواش، مصطفى :خطاب الطبع و الصنعة رؤية نقدية في المنهج والأصول ، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العربي،2005.
- ذي الرّمة: ديوان ذي الرمة، شرح الخطيب التبريزي، كتب مقدمته نجيب طراد، دار الكتاب العربي،1993.
- راضي، عبد الحكيم: نظرية اللغة في النقد العربي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003.
- الرفايعة، حسين: ظاهرة العدول عن المطابقة في العربية، عمان: دار جرير، 2006.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، الجزء الثالث، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001.
- أبو زيد، نصر حامد: مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، 1990.
- شيخ، عبد الواحد حسن: دراسات في البلاغة عند ضياء الدين ابن الأثير ، مؤسسة شباب الجامعية، 1986.
- الطوفي، سليمان بن عبد القوي البغدادي: الاكسير في علم التفسير، تح عبد القادر حسين، القاهرة: مكتبة الآداب، 2002.
- عبد المطلب، محمد: البلاغة والأسلوبية، لونجمان: الشركة المصرية العالمية للنشر، 1994.
- العلوي، يحيى بن حمزة: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، بيروت: دار الكتب العلمية، الجزء الثاني، 1982.
- عياشي، منذر: مقالات في الأسلوبية، دمشق: اتحاد الكتاب العرب ، 1990

- القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب ابن الخوجه، دار الكتب الشرقية، 1964.
- كوهن، جان : بنية اللغة الشعرية، تر محمد الولي ومحمد العمري، الدار البيضاء: دار توبقال ، 1986.
- المسدّي، عبد السلام : الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط2 ، 1982.
- مقابلة، جمال: اللحظة الجمالية في النقد الأدبي، عمان: دار أزمنة، 2007.
- ابن منظور: لسان العرب، بيروت: دار صادر، المجلد الثامن. 1900
- الميداني، عبد الرحمن :البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ط1، دمشق: دار القلم، 1996.

الدوريات العربية :

- بكّار، يوسف: عكس الظاهر مصطلح عربي تليد، مجلة جذور، السنة الثامنة، العدد التاسع عشر، 2007.
- فالح، جليل رشيد: فن الالتفات في مباحث البلاغيين، مجلة آداب المستنصرية، العدد التاسع، 1984.